توجيه الفرد والأمة

-٨-

بقلم : الاستاذ هاري العصامي

التربية الايجابية

هي ان تلقن الطفل الواجب والفضيله ، لتخلق منه نفساً اقرب الى نفوس الملائكة منها الى نفوس البشر ، لا تحلم الا بالواجب والفضيلة قبل النضوج العقلي ، والاستعداد الفكري، وهذا من الاغلاط في اساليب التربية والتعليم وذلك :

ان قوى الادراك والعقل في الطفل دونها في الرجل ؛ وهذه القوى لا تنمو ولا تتكامل الا بعد نمو مجموعة القوى — الحواس الخارجية والداخلية — المودعة في الطفل ، وتهذيبها قبل غيرها، لما لها من العلاقة الكلية في نمو قوى الادراك والعقل وكما للنمو الطبيعي تأثير في قوى الجسم ، فله ابلغ الأثر في نمو الحواس ، فهو المعلم الأول لها ، فكلما يتدرج الطفل في السن تأخذ الحواس الخارجية ، فحاسية الحواس (الحس الداخلي) مكانتها من التهذيب والكمال ، ولهذا التدرج مفعول آخر ، هو ان الحواس تتكامل واحدتها بالاخرى ، فاللمس مثلا يعدل وهم البصر ، فاذا نالت ذلك التكامل ؛ تقوى حاسية الحواس ، فيحصل لها التميز بين الاشياء وفوارقها .

والحس الداخلي يجب أن يكون على اتصال دائم بالطبيعة لكي يصل الروحية بالمادية ، ويتوصل الى معرفة المجهول بالمعلوم وحبل الصلة بينه وبين الطبيعة ، هي الحواس الخارجية ؛ فهذه الحواس تعلمنا صفات الاشياء ومميزاتها ، بعد تهذيبها وتكاملها ، وتنقل الصور الخارجية الى الحس الباطني ؛ فينتزع منها الصور المعنوية بكل فوارقها ومميزاتها واطوارها ، التي لها ابلغ الاثر في نمو الادراك والعقل الذي هو القوة الحاكمة ، واذا تكاملت مجموعة هذه القوى وتهذبت واحدتها بالاخرى ومنفردة ، حتى يدرك الانسان ، ويدرك انه يدرك ؛ ويعقل انه يعقل ؛ عندئذ يدرك ماهو الواجب ؟ أو ماهي الفضيلة ؟ فكيف يلقن الطفل بها قبل النضوج والاستعداد الفكري والعقلي ؟ ! أليس ذلك من الاغلاط في اساليب التربية والتعليم ؟ .

ان الاخلاق قوام الحياة المعنوية ذات الأثر في الحياة المادية للأمة وافرادها ، ولن يدرك الانسان أهمية الاخلاق ، ومكانتها في حياة الجماعات والافراد الا بعد أن يأخذ عقله في الكمال ، وكلما يبلغ العقل درجة من الكمال ، يزداد تقديره لأهمية الاخلاق ؛ ولما كان تقدير الفضيله منوطاً بنمو العقل ؛ يجب أن نوجه أساليب التربية والتعليم الى الناحية — السلبية — اكثر من ناحية الايجاب ؛ لأن الصفات السلبية تستلزمها الصفات الايجابية ، فاذا بلغ العقل مستواه توجه اساليبها الى ناحية الايجاب، ثم ان نفس الطفل في بدء نشأتها محفوفة بالمخاوف لضعفها فاذا حذرت من الكذب بذكر مضاره ، تركته ولازمت الصدق فلا تنطق بعدئذ الا بالحقيقة ، بينا نحن نعطي ابنائنا درساً تطبيقي في الكذب ، فكل منا ينهي ابنه أو أخاه عن الكذب ولكن اذا جاءه وطلب منه فلساً مثلا ، ينفي وجود الفلس في جيبه ، فيلج الطفل ؛ والطفل لجوج بالطبع، فيضطر اخيراً الى اعطائه الفلس فما قيمة قوله لا تكذب بعد ذلك الدرس التطبيقي ؟

التربية السلبية

هي التي تحول بين الطفل والرذيلة ، وتجعل فيه استعداداً الى عمل الخير الأعلى للانسانية ، وتقوده الى الواجب والفضيلة حينما يدرك ما هو الواجب ؟ وما هي الفضيلة ؟

فاذا اردنا أن نكوّن اخلاقا اجتماعية حقيقة ، ونكيف الطفل حسبما يقتضيه واجب الانسانية ، يجب أن نأخذ المسائل الاخلاقية من ناحية النفي والسلب ، وبذلك تحصل في نفس الناشيء انطباعات الى ما يضاد الرذيلة ، قد يهتدي الى بعضها أو كلها بالفطر ؛ أو حسب نمو مداركه ، ويعين واجباته نحو ابناء نوعه ، وما لا يهتدي اليه من الواجبات ، يجب ان يرشد اليها فاذا لقن ان التعدي على الغير رذيلة ، وشرح له مضار التعدي ، يجب أن يلقن بعد ذلك ، ان واجب الانسان لم يكن ان لا يكون ضاراً في المجتمع ، بل عليه واجب آخر ، هو ان يرأف بالغير ، ويواسيه حتى بنفسه .

فمن واجب المربي اولا ان يفهم الطالب بأنه فرد من النوع الانساني ، وأحد أفراد هذه العائلة (المجتمع) ثم يعرفه بواجبه

تجاه المجتمع، هو ان لا يكذب ، ولا يمكر؛ ولا يتعاطى المنكرات ولا يهضم حقوق الناس ،ولا يشرب الخمر، ولا يخادع ؛ ولا يرتشي ، ولا يرتكب الجرائم ، ولا يغضب ، وان يتجنب النميمة ، والحقد، والحسد ، الى غير ذلك مع بيان مضارها ، وكيف تفتك في قلب المجتمع ؟ ! .

فاذا بلغت النفس دور الادراك والتعقل ، وقد تربت على هذه الناحية السلبية ، انطبع فيها حب الخير ، وحينئذ يجب أن تحول وجهة النظر في التربية من السلبيات الى الايجابيات ،وتبدل المنازع الاخلاقية من السجايا والفضائل الانفعاليـة الى اختها الفعالية ، وهذه الاخلاق كما تكون اخلاقا شخصية ؛ فهي نفسها اخلاق اجتماعية ؛ فان اقل مضار الكذب والخبث ؛هو أن صاحبها لن يحصل صديقا مـدى حياته ، ويكون ممقوتا حتى عنـد اوطأ طبقات المجتمع ، واعظم مضار الكذب ، هو ان تسفك الدماء بكلمة مكذوب فيها .

فما اخطأ الطريق (روسو) حين جعل التربية السلبيـة اساساً للتربية ؛ حتى عدّ في هذا العصر المربي الاول ، واحتفل به اكثر من احتفائه بغيره ، ولو رجعنا القهقري الى ما قبل سنة ١٠٣٠ م وكشفنا عن غموض فلسفة التربية الاسلامية ؛ لرأينا المربي الاول الذي وجه نظره في المسائل الاخلاقية الى الناحية السلبية في التربية ، ثم التحول منها الى الايجابية هو المربي الكبير (لروسو) واماثلة اعظم علماء النفس (ابن مسكويه ابو علي احمد بن محمد الخازن الرازي) فقد سبق الى هذه النظرية قبل (٩١١) سنة ، وسار على ضوء نظريته من تخلف عنه ! (٧٤٨) سنة ، ولكن جهل رجال التربية في الشرق ، وغموض الفلسفة اضاعا مجد السبق والابتكار الى المربي الكبير (ابن مسكويه) واليك نص ما قال :

(فاما الفضائل انفسها ، فليست تحصل لنا الا بعد ان نطهر نفوسنا من الرذائل التي هي اضدادها ، اعني شهواتها الرديئـة الجسمانية ، ونزواتها الفاحشة البهيمية ، فان الانسان اذا علم ان هذه الاشياء ليست فضائل؛ بل رذائل تجنبها، وكره ان يوصف بها ، بل يتجاوز ذلك الى مقته وذمه ، بل الى تقويمه وتاديبه(١)

(١) تهذيب الاخلاق : ص : ٤

وبالطبع اذا عرف الانسان الرذائل ومضارها ، وقبح الاتصاف بها ، لزم ما يضادها وهي الفضيلة حسب .

ولو كان للشرق روح حساس ، ودماغ مفكر ، لأدرك حقيقة نفسه؛ واحاط بها معرفة من كل نواحيها الروحية والمادية واذ ذاك تراه يحتفل بمجد سلفه ، ويحافظ عليه خوف الضياع كما يحتفظ قاطع الصحراء على ما معه من قليل الماء ، باكثر من احتفائه بمجد الغرب المكتسب من مجد الشرق ، واذ اردنا أن نحاكم غواة الثقافة ؛ وحاملي لواء الثناء على رجال التربية الغربية الى الحقيقة على هذا الاجرام الى الفلسفة الاسلامية العربية الشرقية ما عسى ان يجيبوا ؟

ثم ان السجايا الاخلاقية العامة قد تكون نقصاً بالنسبة الى بعض افراد المجتمع ، في حين هي كمال (بالنسبة الى حياة الجماعة فالتأني وعدم اسراع المريض الى التـداوي ، يستلزم استفحال الداء ؛ فهو غير محمود عليه ، في حين ان التريث في الحكم والتأني من الحاكم لتحقيق الحق يحمد عليه ، كما يحمد الطبيب لو تريث في اعطاء الدواء ، حتى يشخص الداء مع التأني ، ثم يجب عليه أن يكون من بين طبقات المجتمع مثال الطهر والعفاف والامانة لأن المجتمع قد ائتمنه على الاعراض والدماء ،وليس ثمة جرم اعظم في نظر الدين والوجدان والقانون النزيه من الفتك في النفوس والاعراض

ورقة القلب في الحاكم المطلق تحول بينه وبين الواجب الحقيقي ، كتطهير الارض من المفسدين ، وتصيره مسالماً في كل شيء ، اذ لا يرى الفتك في من يعيث في البـلاد مفسداً حسب شهواته ، الا من باب ايذاء الغير ، والواجب الانساني يقضي عليه ان يواسي ابناء نوعـه ، ويرأف بهم ؛ كالأم الرؤم باولادها ؛ والواجب الحقيقي يقضي عليه ان يكون قاسي القلب قدر الحاجة فيعاقب من يستحق العقاب حينما يستلزم ذلك منفعـة المجتمع ، واعطف عليه كل فرد من اصحاب المهن والمناصب كالسياسي ؛ والجندي ، والكاتب ، والتاجر ، والصائغ ، والحداد ، والنجار والزارع ؛ والمعلم بالاخص لانه القدوة التي تقتدي بها الامة على اختلاف طبقاتها ، ولكل من هؤلاء واجبات تترتب عليه بوجه خاص ، غير ان الواجبات التي تترتب على المعلم ، فانها تختلف وتزيد على غيرها بالنظر الى الوظائف الاجتماعية التي عهدت اليه .

« يتبع »

هادي العصامي